ابن حزم الأندلسي

حياته ومنهجه في الجدل

الدكتور

علي حسين جاسم الكرطاني

المدرس

في كلية العلوم الإسلامية

مقدمة

الدوافع التي دعتني لدراسة حياة ابن حزم ومنهجه في الجدل دوافع عديدة ومتنوعة، منها ما يعود الى قراءاتي الأولى لما وقع تحت يدي من كتبه، وخاصة كتابه ((الفصل في الملل والأهواء والنحل))، ثم ما وجدت عنده من منافحة ونضال فكري دفاعاً عن عقيدته، إضافة إلى ما اتهم به من أنه رجل جدل، وما وقع فيه الآخرون من طعن في نسبه وأرومته. كما إنني لم أجد فيما أتاحه لي اطلاعي من بحث منهج الجدل عند ابن حزم، وأفرد له دراسة أو كتاباً قائماً بذاته.

لكل ذلك وجدت أن الموضوع يستحق العناية، واهتدت جهودي إلى أن أوزع البحث على محورين أو مبحثين رئيسين. تناولت الأول منهما حياة ابن حزم، وقسمته على ثلاثة أقسام تتبعت في الأول منهما نسب ابن حزم وأصله، واعترف أنني أفضت في هذا الجزء من البحث، وعذري في هذه الإفاضة هو أني أردت أن أصل بالموضوع إلى نتيجة علمية، ورأي موضوعي، فالرجل اتهم بالانتحال، وحاول البعض إرجاع أصوله لغير ما قال عن نفسه، من أنه يعود إلى أصل فارسي، مع أن ولاءه عربي قرشي، وان انتماءه إسلامي مخلص، فقد قال عنه البعض بأن أصله من عائلة إسبانية مولدةً تدين بالنصرانية والتمسوا لذلك الحجج والأدلة.

أما الموضوع الثاني من المبحث الأول فتتبعت من خلاله حياة ابن حزم لأصل منها إلى تكوين صورة قريبة عن طبيعة عصره.

وأفردت الموضوع الثالث لحياته الثقافية لما في هذه الحياة من تميز ووضوح تستحق أن يكون لها عنواناً قائماً بنفسه.

أما المبحث الثاني فحاولت من خلاله التعرف على منهج الجدل عند ابن حزم، ومهدت له بالوقوف على معنى الجدل في اللغة والاصطلاح، ثم تطرقت لنظرة ابن حزم الى الجدل والغاية منه لأصل من بعد ذلك إلى الأسس التي يقوم عليها بناء منهجه الخاص فيه وبعد ذلك انتقلت إلى شروط الجدل وآدابه عنده. والطرق التي استخدمها في الجدل أو نبه إليها، وانتهيت هذا المبحث بإلماعة عن آراء الباحثين في جدل ابن حزم، حيث اكتفيت بما يقع ضمن الإشارة والتمثيل.

وختمت البحث بخاتمة أوجزت فيها بعضاً من النتائج المهمة التي انتهى إليها البحث.

وفي النهاية الحقت قائمة بالمصادر مرتبة حسب تسلسل ورودها إثناء البحث، وهذه الطريقة مفيدة في التعرف على الصفحات التي يحتاجه الرجوع الى استخدام المصدر ومكانه، لكنها لا تخلو من عيب تكرار اسم المؤلف الذي لديه أكثر من كتاب يستفيد منه البحث، لكن فوائدها أكثر من ضررها.

بقي أن اعترف بان الموضوع لم توفه جهودي ما يستحق، وأن ما بذلته فيه لا يخلو من نقص، ولا يبلغ الرضا والطموح، لكنه مع ذلك محاولة متواضعة نسأل الله لها التوفيق والسداد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الاول: حياته

أولاً: نسب ابن حزم وأصله

يحتاج موضوع نسب ابن حزم وأصله إلى عناية فاحصة، فهما مثار خلاف بين الباحثين لاسباب شتى منها ما هو مجرد عن القصد، ومنها ما يقع ضمن النوايا المسبقة، تستوي القضية عند الأقدمين والمحدثين، وللوقوف على حقيقة هذا الخلاف، ومقاصده، وعمقه، من الضروري متابعته بشيء من التفصيل. والترتيب المنطقي لبحث هذا الموضوع يقتضي البدء بدارسة النسب، ليمكن بعد ذلك استخدامه كدليل إثبات، أو نفي للأرومة والأصل، وهذا ما سيحاول البحث الإبانة عنه.

نسب ابن حزم:

يلاحظ على الباحثين المحدثين الذين تناولوا ابن حزم بالدراسة، وأتيح الاطلاع على كتاباتهم، أنهم مروا بنسبه مروراً سريعاً مكتفين بالاقتباس عن الأقدمين، وهكذا امتد الخلاف في هذا النسب الماضي الى الحاضر. وبغية الوصول إلى رأي موضوعي في هذا الموضوع، فإن الباحث توصل الى حصر وجوه الخلاف في نسب ابن حزم، فوجدها تتوزع على أربعة وجوه، فهي إما أن تكون في عدد رجال سلسلة النسب، أو في ترتيب أسمائهم، أو في ضبط هذه الاسماء، أو أن يكون التشكيك بالنسب جمله ووضعه أمام شبهه الإنتماء والمنهج المناسب لدراسة هذا النسب، هو أن يكون البدء بما يكاد ينعقد عليه الاتفاق من أسماء آباء ابن حزم، ثم الانتقال الى ما ينشأ عنده الخلاف، ومناقشته، صعوداً لحين بلوغ نهاية السلسلة التي يقف عندها النسب ويبدأ الأصل، وهذا ما سنحاوله في الآتي:

لم يقف الباحث على خلاف حول كنية ابن حزم، (أبو محمد)، وبهذه الكنية قدم نفسه في مؤلفاته.

أما اسمه وأسماء آبائه الذين لا خلاف فيهم فهو (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب). وعند (غالب) هذا توقف كل من (ابن بشكوال) و (الضبي) أثناء ترجمتهما له.

يأتي بعد غالب عند الذين زادوا في ذكر عدد اباء ابن حزم، اسم (صالح)، حيث لا خلاف حول ترتيبه في مسلسلة الرجال، وعند ذكر توقف كل من (القفطي) و (ابن العماد الحنبلي) ان يزيد عليه. اما ضبط اسمه فينفرد بـ(المراكشي) في ذكر على انه (صلح)، ويقول: ((قرى علي نسبه هذا لحظة على ظهر كتاب من تصانفه). والارجح ان ما ذكره (المراكشي) يعود، ربما، الى اسقاط النساخ الذين نقلوا عن (المراكشي). يعزز هذا الرأي ان ابن حزم نفسه قد ذكر هذا الجد على انه (صالح) في احد كتبه، كما ستبين بعد قليل.

يلي (صلح) اسم (خلف) الذي لم يختلف حول ترتيبه احد من الذين مدوا سلسة النسب، وكذلك الحال بالنسبة لضبط اسمه. ويبدو من اشارة (ابن خلكان) ان هذا الجد كان ((أول من دخل الأندلس من آبائه))[١]. يؤيد ذلك (ابن كثير)، سوى انه يجعله (أول من دخل المغرب منهم)[٢]

(١) ابن خلكان، شمس الدين احمد ابن محمد بن ابي بكر: ((وفيت الاعيان وانباء ابناء هذا الزمان))، تحقيق د. احسان عاس، م٣، (بيوتظ، ١٩٧٧،(رقم الترجمة: ٤٤٨)،ص٣٢٥.

(٢) ابن كثير، عماد الدين ابو الفراء اسماعيل: ((البداية والنهاية))، ج١٢، (مكتب المعارف بيوت مكتبة النصر بالرياض، ١٩٦٦، ص٩١.

عند ذكره لنسبه يجعل ابن حزم: اسم (معدان) بعد (خلف)[١]، يوافقه على هذا كل من (المراكش) و(ابن خلكان) و(ابن حجر)[٢]

في حين يخالفهم (ابن كثير) في ضبط الاسم، وليس في ترتيبه، فهو يذكره على انه (معد)[٣] بدلاً من (معدان). ولانفراد (ابن كثير) في هذا الشأن، فالأرجح أن اختلاف اسم (معدان) عنده ناتج عن تحريف الناسخين، خصوصاً أن ترجمة حياة ابن حزم عنده فيها ارتباك بتقدير عمره -كما سيتبين فيما بعد-.

أما (الحموي ياقوت) فإنه خالف من ذكرناهم في أنه يجعل اسم (سفيان) بعد (خلف)[٤] ولما كان اسم (سفيان) موجوداً في سلسلة نسب بن حزم، فالأرجح أن (الحموي ياقوت) أسقطه من النسب اختصاراً، أو أنه من أخطاء الناسخين.

بعد (معدان) يأتي اسم (سفيان) الذي يذكره كل من (المراكشي) و(ابن خلكان) و (ابن كثير) و(ابن حجر) لا يختلفون على أنه الجد قبل الأخير من آباء ابن حزم المعروفين.

وآخر من في سلسلة نسب ابن حزم هو (يزيد الفارسي) وعنده يبلغ هذا النسب منتهاه، حيث أن الإجماع يكاد أن ينعقد بين من اوردوا نسب ابن حزم على أن (يزيد الفارسي) هذا كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، أخو الخليفة معاوية

---

(١) ابن حزم، علي بن احمد سعيد : ((التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالالفاظ

(٢) ابن حجر، احمد بن علي : ((لسان الميزان))، ج٤،(بيروت، ١٩٧١)، رقم الترجمة : ٥٣١)، ص١٩٨..

(٣) ابن كثير : ((البداية والنهاية))، مصدر يابق، ج١٢، ص٩١.

(٤) الحموي، ياقوت ابن عبد الله الروزمي : ((ارشاد الاديب الى محرفة الاديب))، راجعه وزارة المعارف العمومية بمصر، ج١٢ (القاهرة، ١٩٣٨)، (رقم الترجمة : م٦)، ص٢٣٥،

بن أبي سفيان الذي عقد له الخليفة أبو بكر ﷺ (أمره أحد الجيوش الثلاثة التي وجهها لفتح الشام))[١]

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول بشي من الثقة والاطمئنان بأن نسب ابن حزم هو: ((أبو محمد بن علي بن أحمد سعيد بن صالح بن خلف بن معدن بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان)) وزيادة في الإيضاح يمكن الرجوع الى نسب آل حزم المثبتة في (الملحق رقم ١) من هذا البحث

أما والدة ابن حزم، فتكاد تسكت المصادر عن ذكرها، بما فيها ما وصلنا من مؤلفات ابن حزم نفسه. ويرجح (القاسمي) أنها ربما تكون جارية شقراء شكنسية أو صقلبية))[٢]. وهو يستمد هذا الرأي من اعتراف سجله ابن حزم عن نفسه إذ يقول: ((وأخبرك أني أحببت في صباي جارية شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت شوداء الشعر... وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت... وهذا العارض بعينه عرض لأبي ﷺ وعلى ذلك جرى الى أن وافاه الأجل))[٣]. ومن الذين قالوا بمثل هذا الرأي أيضا (د.خليفة) حيث يرى أن والدة

(١) البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر بن داؤد : ((فتح البلدان))، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، (القاهرة، ١٩٥٩)، ص١١٦.

(٢) القاسمي، صلاح الدين : ((مقدمته لكتاب طوق لحمامة في الالفية والالاف))، (بغداد، ١٩٨٦، ص٢١.

(٣) ابن حزم، علي بن احمد بن سيعد : ((طوق الحمامة في الالفة والالاف))، تحقيق صلاح الدين القاسمي، (بغداد، ١٩٨٦) ص٨٥.

ابن حزم في ((أغلب الظن لم تكن عربية الأصل وأنها كانت من شقراوات الأندلس))[١] ولم يجد الباحث ما يمنع من الأخذ بهذا الرأي.

تجنب الباحثون المحدثون الذين أتيح لي الإطلاع على كتاباتهم عن ابن حزم مسألة الخوض في سلسلة نسب ابن حزم، فتجد (د. إحسان عباس) الذي حقق الكثير من رسائل ابن حزم وكتبه أو قدم لها، يصف أثناء ذكره لنسبه عندما ينعقد عليه الإجماع ويبدأ بعده الاختلاف فينهيه بـ(غالب)[٢]. ومن هذا يظهر أنه يأخذ عن (ابن بشكوال) و(الضبي) رغم أنه لم يذكر ما يشير إلى ذلك. أما (عمر رضا كحالة) فإنه يسقط اسم (معدان) من سلسة النسب[٣]، ومنه يتضح أنه ياخذ عن (ياقوت الحموي). ويكتفي (الزركلي) بالوقوف عند (حزم)[٤] مؤثراً الاختصار، في حين يسقط (أبو زهرة) اسم (خلف) وينهي نسبه (بيزيد) دون أن نعرف من أين أخذ ذلك، بهذا القدر من الامثلة والشواهد على تجنب الباحثين المحدثين لمسألة الخوض في مناقشة سلسلة نسب ابن حزم نكتفي، لننتقل إلى أصل عائلته، وما قيل فيها من آراء.

أصل ابن حزم وانتماؤه

١- كانت الغاية من الإفاضة في الحديث عن نسب ابن حزم الوصول الى أصل عائلته التي ينبغي البحث أنها تنتمي في جذورها إلى أرومة فارسية، حيث تبدأ حياتها في الإسلام بجدِّها الأعلى يزيد الذي كان أول من دخل الاسلام من هذه

(١) خليفة، د. عبد الكريم : ((ابن حزم الانلسي حياته وادابه))، (الدار العربية للطباعة والنشر، بيروت مكتبة الاقصى، عمان، بلا. ت.). ص٢٧

(٢) عباس، د. احسان: ((رسائل ابن حزم الاندلسي))، تحقيق ج٢، (بيروت، ١٩٨١، ص٢٥٠.

(٣) كحالة عمر رضا: ((معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية))، ج٧، (دمشق، ١٩٥٩)، ص١٦.

(٤) الزركلي، خير الدين: ((الاعلام))، ج٥، (بيوت، ١٩٦٩)، ص٥٩.

العائلة، وكان مولى ليزيد بن أبي سفيان ﷺ، كما مر من البحث، هذا ما ذكره ابن حزم عن نفسه، وما أيّده فيه جميع الذين ترجموا له، وفيهم من كان من تلامذته ومعاصريه.

٢- مع ذلك كله نجد من يشذ عن القوم بنسب ابن حزم الفارسي، وهو (أبو مروان بن حيان) الذي عاصر ابن حزم، حيث نقل عنه بعض الذين ترجموا لابن حزم رواية لم يقفوا عندها، وتضع هذه الرواية نسب ابن حزم أمام شبهة الانتحال، فابن حيان يقول عنه: ((وقد كان من غرائبه انتماؤه في فارس، واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر... فقد عهده الناس خامل الأبوة مولد الأرومة من عجم لبلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام، لم يتقدم السلفة نباهة))[١].

٣- ما يعنينا من كلام ابن حيان أنه أصبح أساساً لمجموعة من الآراء التي بناها المستشرقون، حيث وافق هذا الكلام أهواهم، فقالوا بنظرية التمسوا لها الأدلة العرقية والثقافية في سبيل إرجاع ابن حزم إلى أصل (إسباني) أو (نصراني). ولأن هذه النظرية لا تقف عند حدود البحث المجرد في أرومة ابن حزم، قدر ما يراد منها، من طرف خفي، الطعن في أصالة الثقافة العربية الإسلامية، لذلك نجد من المناسب مناقشتها والوقوف عندها.

٤- وقبل مناقشة آراء المستشرقين في هذا الصدد، من المفيد مناقشة كلام ابن حيان الذي أول ما يستوقفنا فيه ((هذه اللهجة العدائية التي يبديها ابن حيان في أثناء حديثه عن أبي محمد، فقد استهل روايته بذاكر غرائب ابن حزم... فكان منها

(١) الشنتريني، على بن بسام: ((الزخيرة في محاسن اهل الجزيرة)،القسم الاول من المجلد الاول،(القاهرة، ١٩٣٩)، ص١٤٢.

نسبه الفارسي، ويخيَّل إلينا أن قصد ابن حيان من ذلك كله أن يقول: أن جد ابن حزم الأول كان قريب عهد بالإسلام، وبالإضافة إلى ذلك نتساءل عن مصدر ابن حيان في إشارته هذه؟ وعن من أخذ هذا النسب؟ وأن قوله من ((عجم البلة)) لا يعني شيئاً في تبيان حديثه أكان إسباني الأصل أم فارسيَّه... ومن الجدير بالملاحظة أن جميع القدامى الذين ترجموا لابن حزم لم يعيروا رواية ابن حيان اهتمامهم))[١].

يتضح من تحامل ابن حيان أن كلامه ربما كان ((من تشنيع الفقهاء الذين ناضلهم ابن حزم وكان عنيفاً في نضاله معهم، ولذلك لا نستطيع أن نكذب دعواه لمجرد ما يثيره خصومه من قول قد تكون العداوة هي الدافعة إليه... ولا سبيل لتكذيب ابن حزم في قومه... ولقد كان أخص صفاته الوفاء، والوفاء والكذب نقيضان، وما كان مثل ابن حزم بحاجة إلى ادعاء نسب يزدهي به، وقد اردهى بحليتين هما العلم والجاه بين الناس، فلا مطمع له في هذا الباب))[٢] ولو شاء ابن حزم أن ينتحل لنفسه نسباً، وهو الخبير بعلم الأنساب ((لكان الأجدر أن يتشبث بأرومة العروبة ذات المجد والنخوة والسؤدد، لا بطوائف محدثة في الإسلام، أو بموالٍ منضوين تحت بطون القبائل العربية))[٣].

٥- لم يقف المستشرقون الذين أتيح لنا الوقوف على آرائهم، في التدليل على إسبانية ابن حزم ونصرانيته عند النصوص الصريحة، إنما جنح بهم الخيال فتأولوا في ذلك بتفسير نتاج ابن حزم الفكري والأدبي، لتأكيد نصرانية ابن حزم، أو إسبانيته، فقد انتهى (دوزي) إلى أن ابن حزم -استناداً إلى اهتمامه بالحب وشؤونه

(١) خليفة: ((ابن حزم الاندلسي حياته وادبه))، مصدر سابق، ص١٢-١٣.

(٢) ابو زهرة محمد،: ((ابن حزم حياته وعصره – اراؤه الفقهية))،(القاهرة، بلا. ت)ص٢٦-٢٧.

(٣) القاسمي:((مقدمية لطوق الحمامة))، مصدر سابق، ص٢٠.

في كتابه ((طوق الحمامة)) وفسر هذا الولع لديه بالهوى العذري- ((إلى طبع متأصل في جنسه، وعلله بما يقال من أن ابن حزم ينحدر من أصل نصراني، وقد نقض الأستاذ أسين بلاثيوس رأي دوزي، وأتى بامثلة كثيرة من هذا الحب العذري والعفة الزوجية عند مسلمي الأندلس في نفس العصر الذي عاش فيه ابن حزم))[١].

٦- ومن المستشرقين الذين وجهوا لابن حزم تهمة انتحال النسب وعلّلوا حماسه في الدفاع عن الإسلام بدوافع مسيحية، المستشرق (نيكلسون) الذي يرى أنه في الأصل من أسرة مسيحية، ولكن كان أبعد ما يكون عن تكريم أسلافه المسيحيين بحيث أنه تظاهر بالرجوع بسلالته إلى عبد فارسي ليزيد بن أبي سفيان... وكان احتقاره للمسيحية متناسباً مع حماسته المتعصبة للإسلام))[٢] وسنؤجل التعليق على هذا الرأي بعد أن نسوق آراء طائفة المستشرقين الآخرين.

٧- ورأت مجموعة أخرى من المستشرقين في الدفاع عن ابن حزم وتعرضه لما بين أيدي اليهود والنصارى أنه لربما ينطلق في ذلك من دوافع قومية ووطنية إسبانية، ومن هؤلاء: المستشرق الإسباني (سانتشت البرنس) الذي يقول عنه: ((صحيح إنه مسلم ومتعرب حتى الأعماق، لكن روحه واصلت إسبانيتها دون أن تنحرف!))[٣].

أما المستشرقان (أورتيكا) و(كوميث) فيؤكدان دماء ابن حزم الإسبانية، ويجزمان ((بأنه يختلف عن العرب النازحين إلى الأندلس في كونه إسباني من حيث

---

(١) بالنثيا، انخل جنثالث: ((تاريخ الفكر الاندلسي))، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس، (القاهرة، ١٩٥٥)، ص٢١٣-٢١٤.

(٢) نيكلسون، رينولد.أ: ((تاريخ الادب العباسي))، ترجمة د. صفاء خلوصي، (بغدد، ١٩٦٧))، ص٢٤٤.

(٣) مكي، الطاهر احمد: ((دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة)،(القاهرة، ١٩٧٧)، ص١٤٥.

الصورة والدم))[١]. وبدافع من هذه الوطنية الإسبانية يفسر (ليفي بروفنسال) قيام ابن حزم بكتابة ((رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها)) وذلك من ((أجل الرد على انتقادات أحد كتاب القيروان الذي كان يعيب على المثقفين الإسبان ظهورهم بمظهر المستخف لأعمال ملوكهم السامية... فالرسالة التي ألفها ابن حزم في هذه المناسبة تقدم لائحة تصنيفية مقيدة لثمار الفكر الإسباني العربي))[٢].

٨- ويجمع (ارندوك) في المقال الذي كتبة عن ابن حزم في ((دائرة المعرف الإسلامية)) بين نصرانية ابن حزم وفارسيته إذ يقول عنه : ((وكان جده الأعلى نصرانيا اعتنق الإسلام، ويتصل نسب أبيه بمولى فارسي لزيد بن أبي سفيان))[٣]

ونكتفي للرد على آراء هولاء المستشرقين بإعادة الأسئلة التي طرحها (الدكتور حسان محمد حسان)، فلو كان ابن حزم اسبانيا، أو نصرانيا ((فما السر في ردوده المطولة المقنعة على المسيحية أو اليهودية؟

وإذا كان إسبانيا متعرباً فما السر في عمق صلته بدينه واعتزازه بثقافته الإسلامية العربية؟... ثم هل الحكم على المفكر بنسب دمائه أم برافد فكره ومعالم إنتاجه؟))[٤].

---

(١) Tbn Hazm de cordoba EL collar de Kapaoma,, Traduccion al. Espanol,, Emilio Garcta Gomez, Editorial Allanza, Madrid, 4ed. 1983, p.10.

(٢) بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الاندلس))، ترجمة ذوقان قرقوط،(بيوت، بلارت)، ص٣٤.

(٣) : ارندوك، سي فان : ((المقال الذي كتبه تحت مادة ابن حزم في دائرة المعارف الاسلامية))، نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي واخرون، م١، (طهران، ١٩٣٣)، صـ ١٣٦.

(٤) حسان، د. حسان محمد : ((ابن حزم الاندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي))، (القاهرة، ١٩٦٤)، صـ ٣٧.

أما رأي (ارندوك) فلا ندري ما هو سنده. فإذا كان جد ابن حزم فارسياً، فالنصرانية لم تكن ديانة الفرس، وليس للفرس وجود في الأندلس قبل الإسلام، ثم إنهإذا كان جده مولى ليزيد بن أبي سفيان،فإن ولاء الموالاة يشترط ((ان يتفق فيه اثنان أحدهما عربي مسلم والآخر أعجمي مسلم على أن يعقل العربي عنه إذا جنى ويرثه إذا مات، ويكون منهم بمقتضى هذا الولاء))[١].

ولا غرابة أن يرى المستشرقون ابن حزم فيهم لأنهم يرون فيه قمة سامية لفكر، ولكن العجب هو إن يقول بآرائهم ويدافع عنها بحماسة كاتب عربي هو (الدكتور محمد طه الحاجري) الذي طلب أن نذهب بخيالنا فنتصور ابن حزم من الأسر الإسبانية المسيحية المحافظة على تراثها القومي، وإن ((ما نجده في سليلها ابن حزم من حفاظ ديني وعنف في الدفاع عن العقيدة... إنما يرجع في بعضه إلى شيء من ذلك الميراث الذي انتقل إليه من أسرته... ولا بأس أن يتغير الشكل وتتبدل الصورة الظاهرة، فإنما هو المزاج والطبيعة... الذي تستبقيه الوارثة وينتقل من جيل إلى جيل!))[٢].

ونجد من المناسب أن نجعل ابن حزم نفسه يدافع عن نفسه في هذه الشبهات التي يلصقها الآخرون بالمبدعين إذا ولجت بأحدهم الأقدار ((أحد طريقتين: أما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه، أو سلوكا في غير السبيل التي عهدوها، فهنالك حمي

(١) ابو زهرة : ((ابن حزم حياته وعصره)) مصدر سابق، صـ ٢٧.

(٢) الحاجري،. محمد طه: ((ابن حزم صورة اندلسية))، (بيوت، ١٩٨٢)، ص٢٨.

الوطيس على البائس وصار غرضا للأقوال... وربما نُحِلَ ما لم يقل وطُوِّقَ ما لم يتقلد، وألحق ما لم يفه به ولا اعتقده قلبُه))[١].

يكفي إسبانيا فخراً أنها أقامت لابن حزم في مدينة قرطبة تمثالاً (على باب أشبيلية -أحد أبواب قرطبة- حيث كان يمر كل يوم من سوق العطارين... وقد نحت على أعلى قاعدة التمثال سطر بالخط الكوفي الأندلسي: ((بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة أبي محمد علي بن أحمد بن حزم، تقدم قرطبة أصدق التحية لمن تعتبره ابنا من أعظم أبنائها))[٢].

خلاصة الرأي في نسب ابن حزم واصله أنه كان فارسي الجذور، قرشي الولاء، مسلم الانتماء، للعرب والمسلمين منه ما أنتج من فكر، أما دمه وعظامه فليضعهما -وقد أخذهما البلى- من شاء حيث شاء.

ثانيا: حياته العامة

أ- مولده ونشأته:

١- يروي أحد المعاصرين لابن حزم، أنه كتب إليه ابن حزم وبخط يده عن ولادته قائلا: ((ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة، قبل طلوع الشمس، وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح، آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان المعظم، وهو اليوم السابع من نوفمبر، سنة أربع وثمانين وثلثمائة))[٣]. ويعلق(أبو زهرة) على هذه الرواية قائلاً عن هذا التعيين ودقته في ضبط المواليد فهو

---

(١) ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد: ((رسائل ابن حزم الاندلسي — رسالة في فضل الاندلس وذكر رجالها))، تحقيق د. احسان عباس، ج٢،(بيوت،١٩٨١)، ص١٧٧.

(٢) حماية، د. محمود عل: ((ابن حزم ومنهجه في دراسة الاديان))،(القاهرة، ١٩٦٠)، ص٧.

(٣) ابن بشكوال: ((الصلة))، مصدر سابق، ج٢،ص٦٠٦.

((يدل على عناية أسرته بتحرير تأريخ ولادة آحادها... ويدل على تحضر الأندلس، وعناية أهلها بأخبار مواليدها. وعلى رفعة تلك الأسرة التي كانت تعني هذه العناية))[١].

٢- نشأ ابن في عائلة ميسورة الثقافة والجاه والمال. فأبوه ((أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم أحمد العلماء من وزارة المنصور محمد بن أبي عامر ووزراء ابنه المظفر بعده والمدبرين لدولتيهما))[٢].

لذلك قلنا أن نتصوره ينشأ مترفة ناعمة في قصور أبيه مع أخٍ له يكبره بخمس سنوات هو أبو بكر))[٣].

زاد من حنو عائلته عليه، ورأفتها به، وحرصها عليه، ((أنه أصيب -كما يذكر- في صباه بمرض خفقان القلب))[٤]. لذلك تلقفته أحضان النساء، فكان كما يتحدث عن نفسه فيقول: ((ولقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن... ولم أعرف غيرهن، ولا بالست الرجال إلاَّ وأنا في حَدِّ الشباب))[٥]. وعلى هذه الطريقة استمرت طفولته وفتوته، حيث كان محاطاً بالعيون تراقبه فقد كان وقت تأجُّج نار الصبا وشدة الحداثة - كما يقول عين نفسه- (مقصوراً، محظوراً عليّ بين رقباء ورقائب، فلما ملكت

(١) ابو زهرة: ((ابن حزم حياته وعصره))، ص٢٠٣.

(٢) ياقوت الحمدي: ((رشاد الاديب))، مصدر ساب، ج١٢، ص٢٣٧.

(٣) ابن حزم: ((طوق الحمامة))، مصدر سابق، ص٢١٥.

(٤) ابن حزم: ايضاً. ص٦٤-٦٥.

(٥) ابن حزم: ايضاً. ص١٢١.

نفسي وعقلت، صحبت أبا علي الحسن بن علي الفارسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي﵀[١].

٤- تنتهي هذه المرحلة الوادعة المطمئنة من حياة ابن حزم عند بلوغه الخامسة عشرة من عمره، حيث بدأت الحياة تمتحنه بأكدارها، فقد تفجَّر الوضع السياسي بالأندلس بمحاولة (عبد الرحمن بن المنصور) نقل الخلافة وتحولها من البيت الأموي المرواني، إلى نفسه وعائلته ((فقام في وجهه محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي فقتله عام ٣٩٩هـ ولقَّب بالخلافة... وقد كان قد اعتمد في قوته على السفلة والغوغاء... وبادر بكسر سجن العامرية، وفيه اللصوص والذُّعَّار وأرباب الجرائم))[٢]. ثم انتهب هذا الجيش الفوضوي مدينة ((الزاهرة... حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة والخشب الضخمة... ولما فرغ من تحويل ما كان بالزاهرة أمر بهدفها))[٣] مع هذه الأحداث العنيفة الصافية اضطرت عائلة ابن حزم إلى مغادرة قصورها في الزاهرة، وكما يتحدث ابن حزم ((ثم انتقل الوزير أبي رحمه الله —من دورنا المحدثة... في ربض الزاهرة، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة بلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة... وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة... ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال، والترقيب، والإغرام الفادح، والاستتار، وأزمت الفتنة... وعمَّت الناس وخصتنا

(١) ابن حزم: ((طوق الحمامة)، المصدر السابق، ص١٢١.

(٢) ابن الخطيب، لسان الدين محمد: ((تاريخ اسبانيا الاسلامية — او كتاب اعمال الاعلام في من يوضع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام))، تحقيق وتعليق او ليفي بروفنسال، (بيوت، ١٩٥٦)، ص٨٩.

(٣) ابن الخطيب: ايضاً، ص١١٠.

إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله... بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنين وأربعمائة))[١].

وكان أخوه (أبو بكر). قد توفي في الطاعون الذي حلَّ بقرطبة قبل عام من وفاة أبيه، وذلك في شهر ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة وهو ابن اثنين وعشرين سنة))[٢].

لم يبق إمام ابن حزم ما يشده للبقاء في قرطبة فغادرها مضطرا لتبدأ مرحلة جديدة من حياته يصح أن نطلق عليها مرحلة الغربة أو الاغتراب.

ب- غربة ابن حزم:

١- بدا أول جلاء لابن حزم عن قرطبة -كما يقول- (في أول المحرم سنة٤٠٤هـ)، حيث غادرها مكرهاً وهو في العشرين من عمره، بعد أن تغلب عليها ((ضد البربر))[٣]. واتخذ في رحيله هذا وجهة (المرَّية) التي كان يحكمها آنذاك (الفتى خيران العامري)، الذي استطاع الفرار من قرطبة أثناء الاضطرابات التي انتابتها وتمكَّن من السيطرة على (المرَّية) وعول عليها ((فاحسن ضبطها وحضن قصبتها وسد عوراتها... واتخذها قاعدة لسلطانه))[٤]، في هذه المدينة نعم ابن حزم بحياة هانئة، لكنها لم تدم، إذ انتهى أمره فيها مع صاحبه وزميل دراسته الأولى محمد بن إسحاق، إلى السجن لو شابه نقلها عنهما بعض الوشاة إلى خيران مفادها انهما

---

(١) ابن حزم: ((طوق الحمامة))، مصدر سابق، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) ابن حزم: ((طوق الحمامة))، ص٢١٥.

(٣) ايضاً، ص٢٠٨.

(٤) ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد: ((جمهرة انساب العرب))، تحقيق عبد السلامحمد هارون، (دار المعارف بمصر، ١٩٦٢)،ص١٢.

يسعيان للقيام بالدعوة الأموية. والحق أن هذه التهمة لم تصدر عن فراغ فلابن حزم وصاحبه مثل هذه الميول التي أكدتها الأحداث التي جرت فيما بعد.

٢- أفرج عن ابن حزم وصاحبه، لكنهما نفيا عن (المرّية) متجهين إلى (حصن القصر) الذي وجدا فيه الراحة والأمن لبعض الوقت، ثم لم يلبث أن يرحل مع صاحبه باتجاه (بلنسبة) التي أعلن منها عبد الرحمن بن محمد خلافته وسمي باسم المرتضى، فالتحق به ابن حزم وصديقه عن طريق البحر بعد اقامة بضعه اشهر في (حصن القصر).

٣- عند وصول ابن حزم (بلنسية)، عينه الخليفة المرتضى وزيراً له، ورافقه في زحفه نحو قرطبة التي كان قد سيطر عليها (علي بن حمود) غير ان جيش المرتضى اصطدم عند وصوله غرناطة بقوات البربر المسيطرة على هذه المدينة بقيادة زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، ودارت معركة بين الطرفين استمرت ((أياما، ثم إن المرتضى خذله أنصاره... فانهزموا عنه... وقتل المرتضى))[١]، وقد أسر ابن حزم، ثم لم يلبث أن أطلق سراحه بعد مدة قليلة، إذا أزمع زاوي بن زيري الرحيل عن الأندلس إلى وطنه بأفريقية، مغتبطاً بما تهيأ له وحذراً من العواقب بعد))[٢].

٤- بنفس العام الذي خابت فيه آمال ابن حزم في العودة إلى قرطبة، استطاع أن يحقق حلمه بعد إطلاق سراحه من الأسر عام ٤٠٩هـ، حيث اكتشف عند وصوله مدينة الصبا والشباب وفاة صديقه أبو عبد الله ابن الطبني، الذي دفعه اليأس إلى تقطيع رسائله وأشعاره وقال: (إني اقطعها وأنا أدري أني اقطع فيها أديا

(١) ابن الخطيب: ((تاريخ اسبانيا الاسلامية))، مصدر سابق، ص١٣١.

(٢) ايضاً، ص١٣١.

كثيراً، ولكن لو كان أبو محمد -بعيني حاضراً- لدفعتها إليه تكون عنده تذكره لمودتي))[١].

٥- استمر مكوث ابن حزم في قرطبة لمدة خمس سنوات (٤٠٩-٤١٤هـ) حيث استطاع أهل قرطبة طرد البربر بعد أن ثاروا بوجه قائدهم القاسم بن حمود الملقب بالخليفة المأمون عام ٤١٤هـ، ودب الصراع بين مرشحي البيت الأموي المرواني للخلافة، وأسفر عن فوز صديق ابن حزم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الذي بويع بالخلافة (يوم السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤هـ وتلقب بالظافر بالله))[٢].

اتخذ الظافر من ابن حزم وابن عمه أبو المغيرة وزيرين في حمله وزرائه، لكن هذا الوضع لم يستتب إذ ثار أهل قرطبة ثانية بوجه الظافر وقتلوه ((يوم السبت لثلاثة خلون من ذي القعدة سنة ٤١٤هـ))[٣] وأودع ابن حزم في السجن.

٦- لا نعرف المدة التي أمضاها ابن حزم في سجنه بقرطبة،لكن ((هناك من يؤكد أنه كان يعيش في شاطبة حوالي عام ٤١٨هـ))[٤] وينفرد (الحموي ياقوت) أثناء ترجمته لابن حزم بخبر يشير فيه ((إلى أنه وزر للخليفة هشام المعتد بالله))[٥] الذي بايعه القرطبيون وهو في ((حضر البنت، عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهري... يوم الأحد الخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤١٨هـ. وأقام كذلك سنتين وسبعة أشهر وثمانية أيام، فخطب له بقرطبة غائبا عنها. ثم أتى قرطبة في

(١) ابن حزم: ((طوق الحمامة))، مصدر سابق، ص٢٢٠.

(٢) ابن الخطيب، مصدر سبق، ص١٣٤.

(٣) ايضاً:، ص١٣٥.

(٤) دائرة المعارف الاسلامية، م١، ص١٣٧.

(٥) الحموي ياقوت: (.ارشاد الاريب))، ج١٢، ص٢٣٧.

سنة ٤٢٠هـ، ولم تطل مدته أن خلع سنة ٤٢٢هـ))[١]. ولا مانع يمنع من قبول رواية ياقوت، خصوصاً وأن ابن حزم كان قد وزّر لأخي المعتدّ من قبله الخليفة المرتضى.

٧- بعد خلع المعتدّ باله، انتهى حكم الأمويين نهائياً من الأندلس ((وتقيم البلاد والأقطار رؤساء الطوائف))[٢]، وفي هذا كانت قطيعة ابن حزم النهائية مع السياسة وشؤونها، لتبدأ مرحلة جديدة من حياته يكتنفها التفرغ للعلم والتأليف ونشر المذهب حتى وافته المنية فيما ذكره صاعد من انه نقل من ((خط ابنه أبي رافع: أن أباه توفي رحمه الله عشيه يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة، فكان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة اشهر وتسعة وعشرين يوماً))[٣].

وقد اجتمعت الروايات على هذا العمر باستثناء رواية (ابن كثير) الذي ذكر أنه مات ((وقد جاوز التسعين))[٤]. وواضح ما في هذا التقرير من خطأ في الحساب بدليل من ذات نص (ابن كثير) الذي لم يختلف على أنه ولد عام (٣٨٤وتوفي عام ٤٥٦هـ).

(١) بن الخطيب: ((تاريخ اسبانيا الاسلامية))، مصدر سابقاً، ص١٣٨.

(٢) ابن الخطيب، ايضاً، ص١٣٩.

(٣) ابن بشكوال: ((الصلة)٩، مصدر سابق، ج٢، ص٦٠٦.

(٤) ابن كثير: ((البداية والنهاية))، ج١٢، ص٩٢.

ثالثا: حياته الثقافية

أ- التلمذة والأخذ عن الشيوخ:

١- أشرنا إلى أن بداية نشأة ابن حزم كان في أحضان النساء، وهن اللواتي ((علمنه القرآن الكريم وروين كثيراً من الأشعار، ودربنه في الخط))[١]، حتى إذا بلغ حدود الخامسة عشرة من عمره اختار له أبوه رجلا حصوراً معروفاً بالنسك والصلاة هو أبو علي الحسين بن علي الفاسي، فأخذ يرافقه إلى مجالس العلم ويصفه ابن حزم بقوله ((فنفعني الله به كثيراً وعلمت منه موقع الإساءة، وقبح المعاصي))[٢].

وكان أول سماعه في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن يزيد الأزدي الذي يصفه ابن حزم بقوله عنه ((شيخنا وأستاذي رحمه الله))[٣]. كما كان أول سماعة أيضا من (ابن الجسور قبل الأربعمائة))، في حين يجعل (ابن حجر) بداية سماعه ((في سنة أربع مائة))[٤] مما يؤكد أن عمره عند طلبة العلم عن الشيوخ كان بحدود الخمس عشرة سنة.

٣- أشهر من ذكرهم المؤرخون من شيوخه ((القاضي يونس بن عبد الله وأبي بكر حمام بن أحمد القاضي، وأبي محمد بن بنوش القاضي وأبي عمر بن

---

(١) ابن حزم: ((طوق الحمامة))، ص١٢١.

(٢) ايضاً، ص٢٢٩.

(٣) ايضاً، ص٢٢٩.

(٤) يتفق كل من (ابن بشكوال((الصلة))، ج٢، ص٦٠٥)و(الضحي (بغيةالملتمس)٩، ج٢، ص٥٤٣) على ان بداية سماع ابن حزم كانت قبل الاربعمائة. في حين يجعل (ابن حجر: ((لسان الميزان))، ص٩٨) هذه البداية سنة اربعمائة.

الجسور))[١] و((يحيى بن مسعود بن دحية ومحمد بن سعيد بن بيان وعبد الله بن الربيع وعبد الله بن يوسف بن نامي))[٢] كما صحب ((الشيخ عمر بن عبد البر النمري... وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي الكناني القرطبي))[٣]. وقد ((قدِّر عدد الذين تلقى عنهم نحو عشرين عالماً أديباً، ومفكراً أديباً بارعاً ومحدث، عالم كلام ومتفلسف، منطقي ومؤرخ... وبذلك تعلم من المسجد والمكتبة، والمناظرة والمساجلة، والمنتديات وقصور الأمراء))[٤].

وقد اتهمه المالكية الذين ناوأهم بأنه عارٍ من الشيوخ ويرد عليهم ابن حزم بقوله عنهم ((ثم يقولون عارٍ من الشيوخ، وهم ما كان لهم شيخ قط، ولا حضروا لمجلس حديث، ولا اشتغلوا بتقييده، إنما كان عندهم عبد الملك بن سليمان الخولاني، فكان شيخاً صالحاً... ربما ألم به بعضهم إلمام من لا يدري ما يطلب، يخرجون من عنده كما دخلوا... إنما يقعدون عنده تعوُّد راحة، إذ لم يكن عليهم شغل))[٥].

وقد ساعدت ظروف ابن حزم المعاشية، وما ورثه عن أسرته من أملاك وأموال على تمكنه من التفرغ للعلم وطلبه، مما أتاح له، خصوصا أثناء رحلاته الوقوف على ثقافة موسوعية شاملة تشهد بها مؤلفاته الكثيرة.

---

(١) ابن بشكوال: ((الصلة))، ج٢،ص٦٠٥.

(٢) بن حجر: (لسان الميزان))، ج٤،ص١٩٨.

(٣) ابن كثير: ((البداية والنهاية))، ج١٢، ص٩٢.

(٤) حسان: ((ابن حزم الاندلسي))، ص٤٥.

(٥) ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد: ((رسالتان اجاب فيهما عن رسالتين شئل فيهما سؤال تعنت))، حققها د. احسان عباس في كتاب((الرد على ابن التغريلة اليهودية ورسائل اخرى لابن حزم))، (القاهرة،١٩٦٠)، ص٩٦.

ب- اتخاذ المذهب

١- كانت بدايات ابن حزم المذهبية على ما هو شائع في الأندلس من انتشار الأخذ بالمذهب المالكي الذي كان المذهب الرسمي للدولة تقريباً. ويظهر أن نضع قضية الأخذ بالمذهب عنده قد اقترنت بطلبة الفقه والحديث، وبعد بلوغه الخامسة أو السادسة عشرة من العمر.

٢- ونقل لنا المؤرخون من الذين ترجموا له رواية رواها بعضهم تقول أن سبب طلب ابن حزم للفقه هو جهله بكيفية ((أداء الصلاة المسجد... لحين بلوغه السادسة والعشرين من عمره))[١] ويرجح (أبو زهرة) أن يكون في هذا الكلام تصحيف من النساخ وقد كتبوا بدل العشر عشرين))[٢]. ونحن أميل للأخذ برأي أبي زهرة لأنه لا يعقل أن يبلغ ابن حزم هذه السن وهو لا يعرف بعض وجوه الصلاة.

٣- انتقل ابن حزم إلى المذهب الشافعي، ثم تحوَّل عنه ليأخذ بالمذهب الظاهري، حيث طوَّر هذا المذهب وأضاف إليه لدرجة ((أن ظاهريته اختلفت عن المذهب الظاهري الذي انتشاه أبو سليمان داود بن علي، فهي أوسع وأعمق من حيث: لم يقتصر تطبيقه على الفقه والشريعة، بل طبقه أيضا على الكلام والعقيدة))[٣].

---

(١) الحموي ياقوت: (٠ارشاد الاديب))، ج١٢، ص٢٤١-٢٤٢.

(٢) ابو زهرة: (ابن حزم حياته وعصره))، ص٣٦.

(٣) الصالحي، مهدي طه مكي: (٠اراء ابن حزم في ما بعد الطبيعة))، رسالة نال بها الماجستير من كلية الاداب بجامعة بغداد، ١٩٨٧، مسحوبة بالرنيو، ص٢٠٦.

٤- وتفسيرنا لانتقال ابن حزم المذهبي، ثم استقراره على مذهب إقامة بنفسه ونهجه زكائه، هو نزوعه للخروج من حالة الجمود التي كان عليها المذهب المالكي لدرجة انه ((حدث في أيم الفتنه البربرية أن كان الناس في فزع من هجوم البربر عليهم بقرطبة فسألوا فقهاءهم الجمع بين المغرب والعشاء لئلا يتعرض لم متلصصة البربر في المنعطفات والدروب المظلمة فما استطاعوا أن يفتوهم بذلك جمودا عند حد التقليد))[١]. فوجد ابن حزم أن السبيل المنقذ من هذا التحجر الفكري إنما يكون بالعودة إلى الأصول والمنابع الأولى المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ج- التلاميذ والاتباع:

١- ذكر لنا المؤرخون من تلاميذ ابن حزم المعرفين ((أولاده عمرو أبو رافع ويحيى بن سعيد الأنصاري ويونس بن إسحاق وأبو الزناد وموسى بن سريج المقبري... وأبو محمد بن العربي))[٢] وسواهم.

٢- غير أنه يبدو من النتائج التي تركها نشاطه وأثمرت بها جهوده وتطوافه في شرق الأندلس ومدنها، انه استطاع أن يكسب من القائلين بمذهبه إعدادا لا تحصى من الناس، حيث يذكر القاضي أبو بكر ابن العربي، انه عندما عاد من

(١) عباس، د. احسان: ((مقدمة كتاب الرد على ابن النغريلة اليهودية ورسائل اخرى))، مصدر سابق، ص٢٢.

(٢) ابن حجر: (لسان الميزان))، مصدر سابق، ج٤، ص١٩٨.و (ياقوت الحموي): ((ارشاد الاديب))، مصدر سابق ج١٢، ص٢٤٢).

رحلته العلمية إلى المشرق وجد كما يقول: ((القول بالظاهر قد ملا به المغرب كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم))[١].

٣- وقد جوبه ابن حزم برد عنيف من فقهاء زمانه فكانوا يحرضون حكّامهم ضدّه فيسيِّرونه من بلد إلى بلد، وقد أحرقت كتبه بأشبيلية، حيث عقّب على ذلك بلوعة الفكر وقلت المشاعر، إذ قال:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل أن انزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رهد وكاغدٍ ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر[٢]

ويذكر ما عانا من ممالاة السلطان ضده من قبل هؤلاء الفقهاء المالكية بقوله: ((مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي أبو يوسف القضاء، كانت القضاة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب... لا يولي إلا أصحابه... ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان... ولا يشير إلاّ بأصحابه))[٣].

٤- ولم يلبث اتباع ابن حزم أن ألغوا مذهباً عرفوا به باسم ((الحزمية))، وقد ((مال محمد بن تومرت مهدي الموحدين إلى مذهب ابن حزم... ووصل نفر

(١) الذهبي، شمس الدين محمد: ((تذكره الحفاظ))، ج٣، (حيدر اباد- الدكن، ١٩٧٠)، ص١١٤٩.
(٢) الشنتريني ((الذخيره)) مصدر سابق، القسم الاول، المجلد الاول، ص١٤٤.
(٣) التلمساني، احمد بن محمد المقري: ((نفخ الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب))، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، ج٢، بيوت، بلا. ت)، ص٢١٨.

من فقهاء الحزمية إلى كبار المناصب))[١]. وقد أسرع المذهب الحزمي إلى الزوال بعد انقضاء أمر الموحدين، ولم نعد نجد من اتباعه خلال القرن الثالث عشر الميلادي إلا عدداً قليلاً من الناس))[٢].

د- مؤلفاته:

١- نقل لنا المؤرخون الذين ترجموا لابن حزم عن مجموع مؤلفات ابن حزم رواية ابنه أبو رافع الذي قال: ((إن مبلغ تواليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام تصنفا... حسبت أيام حياته وحسبت تصانيفه وكان لكل يوم أربع عشرة ورقة))[٣].

٢- وقد قام الباحث بإجراء العملية الحسابية نفسها، فوجد أنه على افتراض ابتداء ابن حزم بالتأليف عام ٤١٨هـ، وهي السنة التي يرجح أغلب الباحثين أن ابن حزم ألف فيها كتابه ((طوق الحمامة))، وطرحنا هذا التاريخ من سنة وفاته عام ٤٥٦هـ لكان مجموع ما نفترض انه أمضاه في التأليف حوالي ٣٨ سنة، وهذا يعني إنه كان يكتب في اليوم الواحد بالمعدل أكثر من خمس ورقات.

(١) بالنشيا: ((تاريخ الفكر الاندلسي))، مصدر سابق، ص٢٣٨.

(٢) ايضاً، ص٢٣٨.

(٣) الحموي ياقوت: ((ارشاد الاريب))، مصدر سابق، ج١٢، ص٢٣٩.

٣- أحصى (الأفغاني) مجموع ما وصلنا من كتب ورسائل ابن حزم فوجدها تبلغ (٥٣) كتاباً ورسالة، ذكرها بعناوينها، ورتبها على حروف المعجم[١].

وقد أحصى (الدكتور إحسان عباس) الذي كان أكثر من عني بتحقيق رسائل ابن حزم وكتبه أو قدم لها، ما لم يصلنا من كتبه ورسائله فوجدها (٨٣) كتاباً ورسالةً أورد عناوينها[٢].

(١) الافغاني، سعيد: ((ابن حزم الاندلسي ورسالة في المفاضلة بين الصحابه))، (بيوت، ١٩٦٩)، ص٥١-٥٩.

(٢) عباس، د. احسان: (٠رسائل ابن حزم))، مصدر سابق، ج٢، ص٨-١٥.

المبحث الثاني: منهج ابن حزم في الجدل

أولاً: معنى الجدل في اللغة والاصطلاح

بين المعنى اللغوي لكلمة (الجدل) ودلالتها الاصطلاحية تقارب واتصال من جهة، وتميُّز واختلاف من جهة ثانية، وللوقوف على ذلك، فمن المناسب النظر في دلالة الكلمة لغويا، ابتداء، ثم الانتقال للتعرف على معناها الاصطلاحي.

المعنى اللغوي:

تستخدم كلمة (الجدل) في اللغة العربية لتعطي معنى: ((اللدد في الخصومة والقدرة عليها... ويقال جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي غلبته ورجلٌ جَدِلٌ إذا كان أقوى في الخصام... والاسم الجَدَلة وهو شدة المناظرة والمخاصمة))[١].

كما ترد لتعبِّر عن معنى الصلابة والقوة و(جَدَلُ: الغلام وولد الظبية وغيرها جَدُولاً: قَوِيَ وتبع أمَّه. فهو جادلٌ، وجَدَلَ الحبُّ في السُّنْبُل: نزل فيه، أو قوي، وجَدَل الشيء: صَلُبَ))[٢]

وردت الكلمة في القرآن الكريم، وتكرر ورودها كثيراً، فقد ورد في سورة ((المجادلة)) لتعطي معنى الحوار في قوله ﷻ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٣]. كما

(١) بن منظور، جمال ادين محمد بن مكرم الانصاري: ((لسان العرب))، ج١٣، (المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر، بلا. ت)، ص١٠٩-١١١.

(٢) مجمع اللغة العربية في جمهورية مصر العربية: ((المعجم الوسيط))، ج١، (دار المعارف بمصر، ١٩٧٢)، ص١١١.

(٣) سورة المجادلة: ١.

وردت في آيات أخرى لتعطي معنى المناظرة والمناقشة، من مثل قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١]، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٢]. كما وردت بمعنى المحاراة ومعارضة الكلام ببعضه، كما في قوله ﷻ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾[٣]

وفي حديث استشهد به البغوي، وذكره بسنده قال: ((سمع رسول الله ﷺ قوما يتمارون في القرآن فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا اضربوا كتاب الله بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم فيكلوه إلى عالمه))[٤]

المعنى الاصطلاحي:

١- ظهر المعنى لاصطلاحي لكلمة (الجدل) عند العلماء والمفكرين المسلمين كمحصلة لعنايتهم بالفقه والأدلة الشرعية، ابتداءً، ثم بسبب ظهور المذاهب الإسلامية المعروفة، فيما بعد. وهذا هو التفسير المنطقي الذي يؤكده (ابن خلدون) لظهور الجدل عند المسلمين، والذي نجده منسجماً مع السياق التاريخي لتطور العلوم عند العرب المسلمين. وكما يعلل ذلك (ابن خلدون) بقوله: ((فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين في الإستدلال

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة الحج: ٤.

(٣) سورة غافر: ٤.

(٤) البغوي، الحسين بن مسعود الفراء: ((معالم التنزيل))، ج٧(على هامش تفسير ابن كثير)، (مطبعة المنار بمصر، ١٣٤٧هـ)، ص٢٧٨.

والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه يكون صواباً ومنه يكون خطأً فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول)[١].

٢- من هذا يتضح أن نشوء الجدل عند العرب المسلمين، كان مستقلا عن تأثرهم باليونان، أو الأمم الأخرى، وإن استفادوا من ذلك فيما بعد، عندما ترجمت كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية وتعرف العرب المسلمون على ما فيها من معلومات حول الجدل والمنطق.

٣- يعرِّف (ابن خلدون) الجدل بمفهومه العربي الإسلامي بأنه: ((معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره وهي طريقتان: طريقة البزدوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال، وطريقة العميدي وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة، وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تُتَحرَّى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي))[٢].

٤- والجدل بمعناه الاصطلاحي العام عند المنطقيين، ((قياس مؤلف من مقدسات مشهورة أو مسلم بها، أي قياس مفيد لتصديق، لا تعتبر فيه الحقيقة وعدمها بل عموم الاعتراف والتسليم كقولك: ((فلان يطوف في الليل فهو لص))

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن: ((مقدمة العلامة ابن خلدون))، (المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، بلا. ت))، ص٤٥٧.

(٢) ابن خلدون: ((مقدمة ابن خلدون))، مصدر سابق، ص٤٥٧.

والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان))[١]، وقد عرفه مجمع اللغة العربية بمصر على انه: ((طريقة في المناقشة والاستدلال صورها الفلاسفة بصور مختلفة، وهو عند مناطقه المسلمين: قياس مؤلف من مشهورات أو مسلمات))[٢].

٥- استمدت النظرة الأوربية الحديثة في تحديد معنى الجدل من دلالته عند اليونان، حيث كان ((ارسطو أول من أقام الجدل على أساس متيسر في كتابه (الطوبيقا)... حيث استكشف في سباق تأليفه لهذا الكتاب كثيرا من المبادئ الأساسية للمنطق الصوري -وهو موضوع نماه في تحليلاته بوصفه نظرية في البرهان هي على نقيض الجدل الذي يقتصر على الاستدلال المستمد من مجرد الآراء الظنية))[٣].

وفي العصر الحديث اعتبر هيجل الجدل ((طريق سير لا في التدليل العقلي وحده كذلك في التاريخ وفي الكون ككل، ويتألف عنده من حركة ضرورية تنتقل من الدعوى إلى نقيضها، إلى التأليف بين الطرفين. وكان الجدل الهيجلي هو الذي تعهده بعد ذلك ماركس... مستبدلا بالروح التي قال بها هيجل المادة))[٤]

---

(١) المنجد في اللغة والاعلام، (بيوت، ١٩٨٤)، ص٢٧.

(٢) المعجم الوسيط، اصدره مجمع اللغة العربية في جمهورية مصر العربية، ج١، (دار المعارفبمصر، ١٩٧٢)، ص١١١.

(٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل واخرون، راجعها واشرف عليها واضاف شخصيات اسلامية د. زكي بنجيب محمود، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص١٢٥.

(٤) ايضاً، ص٤٥٧.

ثانيا: منهج الجدل عند ابن حزم

نظرة ابن حزم إلى الجدل والغاية منه وأقسامه:

يعطي ابن حزم للجدل معنى واسعا يشتمل على المناظرة لطلب الحق، وعلى المغالبة والإفحام والإلزام، وهو يقسم الجدل استنادا إلى النصوص القرآنية الكريمة إلى نوعين:

جدل محمود مأمور به من الله ﷻ في قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1]. فيشير ابن حزم الى ان الله ﷻ ((قد أوجب الجدال في هذه الآية وعلَّم فيها -ﷻ- جميع آداب الجدال كلها من الرفق، والبيان، وإلتزام الحق، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة القاطعة... فمن نهى عن المناظرة والحجة فليعلم أنه عاص لله ﷻ))[2].

والنوع الثاني: الجدل المذموم الذي احتج به القائلون بإبطال الجدال المناظرة، وهذا الجدال فيه وجهان:

((أحدهما: من جادل بغير علم.

والثاني: من جادل ناصراً للباطل بشغب وتمويه بعد ظهور الحق، وهؤلاء هم المذمومون وهم الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد: ((الاحكام في اصول الاحكام))، تحقيق الشيخ احمد محمد شاكر تقديم ومراجعة د. احسان عباس، ج١، (بيوت، ١٩٨٠)، ص٢٠-٢١.

اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾[١]. وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٢]...فبين الله ﷻ... أن الجدال المحرم هو الجدال الذي يجادل به لينصر الباطل، ويبطل الحق بغير علم))[٣]

٢- والجدل -عنده- يهدف لتحقيق غايات إسلامية وعقلية فهو ((طلب الحق ونصره، وإزهاق الباطل وتبيينه، فمن طلب الحق، وأنكر هدم الباطل فقد ألحد وهو من أهل الباطل حقاً))[٤]

الأسس التي يقوم عليها بناء منهجه في الجدل

يعتمد منهج ابن حزم في الجدل على أساسين رئيسين هما المنطق العقي والدليل الشرعي والفقهي المستمد من الدين الإسلامي، ((وإذا كان المنطق ثمرة التجربة اليونانية الحضارية، فإن الفقه ثمرة التجربة الحضارية الاسلامية تعانقا عنده... دون تعارض او تضارب))[٥].

وترتيبه الذي وضعه في اعتماد هذين الاساسين ان لا يقبل اي رأي إلا ببرهان عقلي فهو شرطه عند المناظرة، يقول: ((وإذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام في كتاب، فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة

(١) سورة غافر: ٦٩.

(٢) سورة الحج: ٤.

(٣) ابن حزم: ((الاحكام))، مصدر سابق، ج١، ص٢٤.

(٤) بن حزم: ((الاحكام))، مصدر سابق، ج١، ص٢٧.

(٥) د. حسان،: ((ابن حزم عصره ومنهجه)، مصدر سابق، ص١٣٧.

قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع، وأيضا فلا تقبل عليه إقبال المصدق به... قبل علمك بصحته ببرهان قاطع))[١].

أما إذا انصرف الجدل أو اتجهت المناظرة نحو ما ورد فيه النص الشرعي، فان الوجوب عند هذا هو الوقوف عند النص والتمسك به، يقول: ((ومن الناس من يستشهد بالعقل على تصحيح شيء ليس في العقل الا ابطاله لمتطلب في العقل عللا موجبة بجزيئات الشرائع فانه ليس في العقول الا وجوب الائتمار للاول الخالق فقط في اي شيء امر به))[٢]

وقد ادرك ابن حزم حاجة هذا المنهج الى التبسيط، فالف في سبيل ذلك كتابه التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالالفاظ العامية والامثلة الفقهية)، فكان سباقا بهذا لزمنه.

شروطه في الجدل والمناظرة وآدابها:

يضع ابن حزم للجدل والمناظرة شروطا وادبا يستمدها من المنهج الاخلاقي الاسلامي في الحوار الهادئ والاقناع، ويمكن ايجاز هذه الشروط بالاتي:

١- ان يقبل الانسان على الجدل والمناظرة ((اقبال من يريد خط نفسه في فهم ما يسمع ورأي ليزيد به علماً وقبوله أن كان حسنا، أو رده أن كان خطأً، فمضمون لك،إذا فعلت ذلك، الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العظيم))[٣].

---

(١) ابن حزم: ((رسالة مداواه النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل – رسائل ابن حزم الاندلسي))، تحقيق د. احسن عباس، ج١، (بيوت، ١٩٨٠)، ص٤١٢.

(٢) ابن حزم: ((التقريب لحد المنطق))، مصدر سابق، ص١٨٩.

(٣) ابن حزم: ((رسالة في مداوله النفوس))، مصدر سابق، ص٤١٣.

٢- ان ينفع الجدل وتكون المناظرة عند وجود نقص في معرفة الحقيقة، او الادلة الموصلة إليها ((فاذا اتفق ان يكون المتناظران هكذا فتلك مناظرة فاضلة حميده العواقب يوشك ان تنحل على خير مضمون))[١].

٣- ان ينطلق المتناظران من غلط مشترك أو ((يكون أحدهما جاهلا طالبا والثاني غالطاً أو مغالطاً، فتلك مناظرة يكثر فيها الشغب ويعظم النصب ويكثر الصخب ويشتد الغضب ويوشك أن تشتد مضرتها... وملاك ذلك ان لا ينطق بينهما ثالث بكلمة الا ان يرى حيفا ظاهرا فيشهد به وإلا يقطع أحدهما كلام صاحبه حتى يتمه وان لا يطول الكلام فهما بما لا فائدة فيه))[٢].

٤- وعلى الذي يحاول تعزيز رايه بالبرهان وتقديم الدليل، لانه ((لا يفلح اذ قال قوله لا يقيم على صحتها صحة قاطعة، ووجدناه تعالى قد علمنا... وجوه الإنصاف الذي هو غاية العدل في المناظرة، وهو انه من اي ببرهان وجب الانصراف إلى قوله))[٣].

٥- وإذا ما أخطأ أحد المتناظرين ((وطلب الإقامة فذلك له واجب، وعلى الآخر ان يقبله لاه المرء كيس قوله جزءا منه لكنه واجب عليه ترك الخطأ إذا عرف انه خطأ، فالمانع من الإقامة ظالم مشغب وجاهل. وكذلك أن رأى حجته فاسدة فأراد تركها، وأخذ غيرها فذلك له وهو محسن في ذلك، وليس في ذلك انقطاع في القول المناظر عنه))[٤].

---

(١) ابن حزم: ((التقريب لحد المنطق))، مصدر سابق، ص١٨٦.

(٢) ابن حزم: ((التقريب))، ايضاً، ص١٨٦.

(٣) ابن حزم: (٠الاحكام))، مصدر سابق، ج١، ص٢٠.

(٤) ابن حزم: ((التقريب لحد المنطق))، مصدر سابق، ص١٨٧.

٦- ومن آداب المتناظران على أيهما يكون في موقف السائل وأيهما يكون في موقف المسؤول، فهذه هي طريقة ابن حزم التي يطبقها ويعمل بها، يقول: ((وأما نحن فطريقتنا في ذلك تخيير الخصم أن يكون سائلا أو مسؤولاً فأيهما تخير أجبناه))[١].

٧- ولا يعول على شهادة الآخرين في الغلبة لأحد طرفي الجدال ((إذ يكونون موافقين في رأيهم لرأيه الذي شهدوا له فسبيلهم وسبيله واحد، والإنصاف في الناس قليل))[٢].

٨- ويرى انه من الخطأ الفادح ((معارضة الخطأ في المناظرة مثل ان يقول السائل للمسؤول: أنت تقول كذا أو ثم تقول كذا فيقول المجيب: وأنت تقول أيضا كذا أو لأنك أنت أيضا تقول كذا، فيأتيه بمثل ما أنكر هو عليه أو أشنع فهذا أكله خطا فاحش))[٣].

٩- والمناظرة عنده يجب ان تحضر في حدود موضوعها ولا تعجم فيها ما ليس منها((فهذا من فعل أهل الجنون أو من يريد أن يطيل الكلام))[٤].

١٠- وهو يحذر من اتخاذ السمعة الأدبية السابقة التي يتمتع الخصم واخذها كمبدأ للتسليم بصحة جميع ما يقول، والصواب عنده هو الدليل والبرهان فلا

---

(١) ايضاً

(٢) ايضاً/ ص١٨٨

(٣) ايضاً، ص١٩٠.

(٤) ايضاً، ص١٩٣.

((يقبل قول أحد الا بحجة... وان من لآيات على قوله بحجه فهو مبطل بنص حكم الله ﷻ))[١].

١١- وتنتهي المناظرة في راية عندما يسكت أحد المتناظرين عن المعارضة وكما يقول: ((فمن سأل فأجابه خصمه فسكت عن المعارضة فهذا مكان قد انقطعت فيه المناظرة التي ابتدأها الا ان تستأنف اخرى))[٢]. وهو لا يعول على اتهام الاخرين بالباطل فيكون هذا الاتهام مبررا للانسحاب، بل عليه الاستمرار في الدفاع عن جميع ما يعتقد انه حق، ولو واجه في ذلك((جمع من على ظهر الارض... فلن ينفعه اتباع الناس في الباطل والفضولإذا اسخط ربه تعالى ونجن عقله))[٣].

١٢- ويحذر ابن حزم من الغرور والإعجاب النفس في قوة الجدل، فالكمال لله وحده، يقول: ((فإن أعجبت بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تحل بخاطرك وفي أضاليل الأماني الطائفة بك، فانك تعلم نقص عقلك حينئذٍ. وإن أعجبت بارائك، فتفكر في سقطاتك وأحفظها ولا تنسها، وفي كل رأي قدرته صوابا فخرج بخلاف تقديرك، وأصاب غيرك، وأخطات أنت))[٤].

د. طرق الجدل عند ابن حزم:

استخدم ابن حزم في الجدل وطرقه، والمناظرة وأساليبها، جميع ما أسعفته به ثقافته الموسوعية الشمولية، ومواهبه الشخصية، فاستفاد من كل ذلك في الرد على

---

(١) ابن حزم: ((الاحكام))، مصدر سابق، ج١، ص٢٠.

(٢) ابن حزم: ((التقريب لحد المنطق))، مصدر سابق، ص١٨٧.

(٣) ابن حزم: ((رسالة في مداولة النفوس))، مصدر سابق، ص٣٥٥.

(٤) ابن حزم: ((الرسالة ايضاً))، ص٣٨٧.

خصومه ومكابديه، فكان في جدله، كما يصفه ابن حيان: ((يصك معارضه صكَّ الجندل، وينشّقه مُتلقّيه إنشاق الخردل))[١]. وقد استفاد في بناء هذه الطرق من الجدل اليوناني، ومن الجدل القرآني الكريم، حيث يمكن مع أساليبه وطرقه في الجدل والمناظرة بما أورده (الدكتور محمد علي حماته)، فأحصى له الأتي:

- الاستفهام التقديري: وهو الاستفهام عن المقدمات البينة البرهانية التي لا يمكن لأحد أن يجحدها، وهي تدل على المطلوب لتقدير المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل... وهذا النوع من أحسن جدل القرآن بالبرهان.
- مجاراة الخصم وموافقته على مقدمة فاسدة ليريه فساد إنتاجها وإنها تؤديه إلى محال وإلى فساد أصيل.
- مطالبة الخصم بتصحيح دعواه، وإثبات كذبه في مُدَّعَاه.
- القول بالموجب: وحقيقته رد كلام الخصم في فحوى كلامه.
- بيان أن مدعى الخصم خالٍ من الحجة، وأن البرهان قام على نقيض مُدَّعاه.
- ومن الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل والتي كان يستعملها ابن حزم: ((السبر والتقسيم)) وهو باب من أبواب الجدل يتخذه المجادل سبيلا لإبطال دعوى من يجادله ويكون ذلك بحصر الأوصاف خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع))[٢].

يتبين مما سبق أن ابن حزم استخدم ما أمكنه من طرق وأساليب في الجدل والمناظرة، أما طريقة انتخابه لهذه الطرق وهذه الأساليب، فإنها تعددت وتنوعت،

---

(١) الشنسويني ((الذخيره))، مصدر سابق، قدامة م١، ص١٤١.

(٢) حماية (د.): ((ابن حزم ومنهجه))، مصدر سابق، الصفحات ٢١١-٢١٥.

حيث يرى الباحث أنها تحددت من خلال تحديد المنطلقات التي تكون رأي الخصم، وفي هذا الصدد، توصل البحث إلى حصر هذه الأساليب وتوزيعها على الوجوه الآتية استنادا إلى موضوعها، مما توضحه هذه الوقفة القصيرة التي يسمع البحث بإتاحتها.

هـ. استخداماته لطرقه وأساليبه في الجدل والمناظرة

١- استخدام ابن حزم طريقة الاستدلال العقلي اثناء مناقشته للعقائد والافكار الفلسفية التي لا تسندها نبوه، او ايمان بالرسل، فهو يفقد دعاواها من خلال اللجوء الى البرهان.المجرد الخالي من اسناد يعتمد على النص القرآني، مع ان ذلك لا يمنع من استفادته من الدليل القرآني خصوصاً في المحاججة البرهانية التي ورد ذكر بعض وجوهها في القران الكريم، مما له صلة في هذا الشان.

٢- أما في جدله مع أصحاب الديانات من غير المسلمين، فانه يستخدم نصوصهم نفسها، ويبين تعارضها مع بعضها، وكان في هذا ((محفوظه البحر العجاج، ولقد حفظ على المسلمين علومهم راداً على أهل كل دين))[١]. وهو في كل هذا لا يركن إلى مجرد ما يسمع، إنما يتحرى وبحث عن النصوص. يقول اثناء عزمه على الرد على (ابن النفريلة اليهودي) (ولم أزل باحثا عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرني الله ﷻ عليه من نصر دينه بلساني وفهمي... فأظفرني القدر بنسخة رد فيها عليه رجل من المسلمين، فانتسخت الفصول التي ذكرها ذلك الراد...وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة بحول الله تعالى وقوته))[٢].

(١) ابن حجر العقلاني: ((لسان الميزان))، مصدر سابق، ج٤، ص١٩٩.

(٢) ابن حزم: (.الرد على ابن النغريلة))، مصدر سابق، ص٤٧.

٣- وأثناء مناقشته لأقوال المسلمين من فرق وأصحاب مذاهب: ((فقد كان لها منها جان: لأنها نوعان يختلف كل نوع باختلاف منهاجه... فالفرق المختلفة كالمعتزلة نجده في مناقشتها يعتمد كثيرا على العقل، لأنهم تصدوا لمسائل عقلية... أما مناقشته لأقوال الفقهاء والمحدثين فإنها نوع آخر... يعتمد على النصوص والآثار وقواعد الاستنباط))[١].

٤- ولم يقصد ابن حزم مناظراته وردوده على أسلوبه النثري المميز، فقد كان شاعرا حاضر البديهة استخدم جميع ما أسعفته به الإمكانياته الشعرية فرد على مهاجمي الإسلام، دون ان يتحدد بمكان، أو يتقيد بمناسبة، ومن هذا القبيل (نقيظته الشعرية التي رد فيها على قصيدة منسوبة لـ(تقفور عظيم الروم) التي مجا بها المسلمين ووجهها هاجيا بها أيضا ((الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين، والتي مطلعها:

من الملك الطهر المسيحي رسالة إلى قائم بالملك من آل هاشم

أما سمعت أذناك ما أنا صانع بلى فعداك العجز عن فعل حازم

وقد بلغت هذه القصيدة ابن حزم وهو في الأندلس، فارتجل قصيدة يرد بها على هجاء تقفور تألفت من حوالي مائة وأربعين بيتاً مطلعها:

من المحتمي لله رب العوالم ودين رسول الله من آل هاشم

إلى قائل بالإفك جهلاً وضِلَّةً على التقفور الْمُضَرى في الأعاجم[٢]

(١) ابو زهرة: (ابن حزم حياته وعصره)، مصدر سابق، ص٢٠٩- ٢١٠.

(٢) السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين: (طبقات الشافية الكبرى))، ج٢، (المطبعة الحسينية المصرية، بلا. ت)، ص١٧٩، ١٨٤. وقد اوردالقصيدةتين كاملتين.

ثالثا: آراء الباحثين في جدل ابن حزم

أثار جدل ابن حزم والطرق التي اتبعها في المناظرة، مواقف متعددة اتخذها منه معاصروه، كما كان هذا الجدل مثارا لآراء الباحثين المحدثين، واستكمالاً للصورة عن منهجه في الجدل ومكانته، نرى من المناسب الوقوف عند الآراء فيه.

١- يلخص لنا ابن حيان الذي نقل لنا المؤرخون كلامه، رأي معاصريه من معارضيه في جدله حيث يقول عنه: (وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة، غير انه لم يخل فيها من الغلط والسقط... لا سيما المنطق، فإنهم زعموا أنه زل هنالك... وخالف ارسطا طاليس واضعه مخالفة من لم يفهم غرضه، ولا ارتاض في كتبه))[١]، ولم يعدم ابن حزم شهادة من عصره في الرد على ابن حيان، حيث يصف لنا تلميذه الحميدي طريقته في تقريب المنطق وتسهيله وتحديده فيه بقوله: ((فإنه سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه... طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمنا))[٢].

ومما أخذه ابن حيان على أسلوب ابن حزم في الجدل انه كان فيه عنيفا قويا ((فلم يك يلَطِّف صدعه بما عنده بتعريض، ولا يزفُّه بتدريج... فينفِّر عنه القلوب... حتى استهدف إلى فقهاء وقته فتمالئوا على بغضه... وأكثروا معايبه... جهله بسياسة العلم... وتخلفه عن ذلك على قوة سلجه في غماره))[٣]. ومن كلام ابن حيان يتضح انه عادي فيه فقهاء لمالكية الذين عارضهم ابن حزم، وحرضوا ضده حكامهم فأبعدوه عن بلادهم.

---

(١) الشفتريني الزخيره، المصدر السابق، م١، ص١٤٠.

(٢) الضبي، ((بغية الملتمس))، مصدر سابق.

(٣) الشفتريني (الذخيرة)، مصدر سابق، م١، ص١٤١.

٢- حاول بعض المحدثين التماس التبارير لعنف ابن حزم في جدله، وقد مرت معنا آراء المستشرقين التي فسدت هذا العنف بإسبانية ابن حزم وجذوره النصرانية، ولم نجد بين العرب ممن أسعفنا الوقت في الاطلاع على بحوثهم من يقول بمثل هذا الرأي سوى (الحاجري) الذي يقول عن أسرة ابن حزم ما يصوره خياله فيراها ((في صورة إحدى هذه الأسر الإسبانية المحافظة على تراثها القومي... وان ما نجده في سليلها ابن حزم من حفاظ ديني وعنف في الدفاع عن العقيدة... إنما يرجع في بعضه إلى شيء من ذلك الميراث الذي انتقل إليه من أسرته... فإنما هو المزاج والطبيعة والاستعداد العقلي والاتجاه النفسي الذي تستبقيه الوراثة وتنتقل فيه من جيل إلى جيل))[١]. ولا يعدو هذا التصور، كما وصفه صاحبه، أن يكون تحليقا في خيال. ومن المآخذ على أسلوب ابن حزم في مناقشته وجدله ومناظراته ما نجده عنده من ألفاظ قاسية اعتبر البعض ورودها ((على قلم رجل قوي العلم متين الحجة كابن حزم من أغرب الأمور))[٢].

(١) الحاجري: ((ابن حزم صورة اندلسية)، مصدر سابق، ص٢٨.

(٢) الافغاني: (.ابن حزم ورسالته في المفاضلة))، مصدر سابق، ص١٦٢.

خاتمة واستنتاجات

اظهر البحث مجموعة من النتائج يمكن ان نوجز لها ونجملها بالاتي:

١- ان ابن حزم كان داعية من كبار دعاة العرب المسلمين، وأنه قرشي الولاء إسلامي الانتماء، وإن كان نسبه يرجع إلى أسرة فارسية، فلم تنهض الأدلة الكافية حول القول بإسبانيته، أو مسيحيته عائلته، مما ادعاه المستشرقون واتباعهم.

٢- ثم إن هذا العالم الذي قلَّ من يناظره في غزارة الإنتاج والتأليف، استطاع ان يؤسس مذهباً ظاهرياً قائماً بذاته، وأن هذه الظاهرية فيه مردها إلى رفضه للتقليد وطلبه للعودة إلى منابع الدين الإسلامي الأولى ممثلة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، والخروج عن الجمود والتحجر المذهبي.

٣- وقد عبَّر في تأليفه الكثيرة عن جميع ما عايشه من عصر اضطربت الأوضاع السياسية فيه وتلاقحت الثقافات لتعبر عن نفسها بحرية لا نجدها في مناطق العالم الأخرى خارج العالم الإسلامي، فهو كان أول من أسس (علم الأديان المقارن) كما يؤكد ذلك كبار المستشرقين والباحثين.

وقد جدد المنطق، وجمع في الجدل ما لدى اليونان من جهة وما في الفقه الإسلامي من جهة ثانية فقرب المنطق والجدل بأسلوب سهل مبسط عززه بالشواهد الفقهية والأمثلة العافية. وكان مخلصا في بحثه عن الحق وتحريه عن الحقيقة وطلبه لها.

ولم يقتصر في علمه وحياته على البحث والدراسة المحرابية، إنما هو شارك في صنع أحداث عصره واندمج في معتركها، وكانت له في هذا الشان مساهمات مشهورة، حيث كان من المنافحين عن وحدة الأندلس، ووحدة العالم الإسلامي.

المصادر مرتبة حسب تسلسل ورودها في البحث

- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف (ت ٥٧٨هـ): ((الصلة))، تحقيق إبراهيم الأبياري، ج٢، (دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩).
- الضبي: أحمد بن يحيى بن عميره (ت٥٩٩هـ): ((بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس))،تحقيق ابراهيم الابياري، ج٢، (دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩).
- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت٦٢٤هـ): ((تاريخ الحكماء))، (مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر، بلا،ت).
- الحنبلي، عبد الحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ): ((شذرات الذهب في اخبار من ذهب))، م٢،(بيروت، بلا.ت).
- المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧هـ): ((المعجب في تلخيص اخبار المقرب))، (مستردام، ١٩٦٨).
- ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت٦٨١هـ): ((وفيات الاعيان وانباء ابناء هذا الزمان))، تحقيق د. احسان عباس، م٣، (بيروت، ١٩٧٧).
- ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل: (ت٧٧٤هـ): (البداية والنهاية))، ج١٢، (مكتبة المعارف، بيروت- مكتبة النصر، الرياض، ١٩٦٦).

- ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد(ت٤٥٦هـ): ((التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالالفاظ العامية والامثلة الفقهية))، تحقيق د. احسان عباس، (بيروت، بلا. ت).
- ابن حجر، احمد بن علي (ت٨٥٣): ((لسان الميزان))، ج٤، (بيروت، ١٩٧١).
- الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ): ((اراشاد الاريب الى معرفة الاديب))، راجعته وزارة المعارف العمومية بمصر، ج١٢، (القاهرة، ١٩٣٨).
- البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر بن داؤد (ت٢٧٩): ((فتوح البلدان))، راجعه وعلق عيه رضوان محمد رضوان، (القاهرة، ١٩٥٩).
- ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد: ((طوق الحمامة في الالفة والالاف))، تحقيق صلاح الدين القاسمي (بغداد، ١٩٨٦).
- خليفة، د. عبد الكريم: ((ابن حزم الاندلسي حياته وادبه))، (الدار العربية للطباعة، بيروت- مكتبة الاقصر، عمان، بلا. ت).
- عباس، د. احسان: ((رسائل ابن حزم الاندلسي))، تحقيق، ج٢، (بيروت، ١٩٨١).
- كماله، عمر رضا: ((معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية))، ج٧، (دمشق، ١٩٥٩).
- الزركلي، خير الدين: ((الاعلام))، ج٥، (بيروت، ١٩٦٩).

- الشفتريني، علي بن بسام (ت٥٤٢هـ): ((الذخيره في محاسن اهل الجزيرة))، القسم الاول من المجلد الاول، (القاهرة، ١٩٣٩).
- ابو زهرة، محمد: ((ابن حزم حياته وعصره- ابراؤه الفقهية))، (القاهرة، بلا. ت).
- بالنثيا، انخل حنثالث: ((تاريخ الفكر الاندلسي))، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس، القاهرة، ١٠٥٥).
- نيكلسون، ريتولد.ا: ((تاريخ الادب العباسي)، ترجمة د. صفاء خلوصي، (بغداد، ١٩٦٧).
- بروفنسال ليفي: ((حضارة العرب في الاندلس)، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت، بلا. ت).
- ((دائرة المعارف الاسلامية))، نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي واخرون، م١، (طهران، ١٩٣٣).
- حسان، د. حسان محمد: ((ابن حزم الاندلسي عصره ومفهي وفكره التربوي))، (القاهرة، ١٩٦٤).